

فصلية مُحَكِّمة تُعنى بالبحوث والدراسات العلمية والإنسانية والفكرية

العدد (١٨) السنة الخامسة رمضان ١٤٤٧ هـ آذار ٢٠٢٦ م



الغزو المغولي لبلاد المسلمين في ضوء كتاب الحضارة العربية
للمستشرق الفرنسي جاك ريسلر: دراسة تحليلية
**The Mongol Invasion of the Lands
of the Muslims in Light of the
Book The Arab Civilization by the
French Orientalist Jacques Risler:
An Analytical Study**

م. د. عبد الحميد طارق عطيه
جامعة بغداد/ كلية العلوم الإسلامية

فصلية مُحَكِّمة تُعنى بالبحوث والدراسات العلمية والإنسانية والفكرية

فصلية مُحكّمة تُعنى بالبحوث والدراسات العلمية والإنسانية والفكرية

العدد (١٨) السنة الخامسة رمضان ١٤٤٧ هـ آذار ٢٠٢٦ م



الملخص:

يتناول البحث دراسة تحليلية نقدية لما تناوله المستشرق الفرنسي جاك ريسلر في كتابه: (الحضارة العربية) وبيان بعض ظروفه التي تركز على تأثير العوامل الداخلية في انهيار الحضارة الإسلامية، وبينت الدراسة خطأ هذا القول؛ لأن الغزو المغولي كان نتيجة عوامل مجتمعة بعضها داخلي والبعض الآخر خارجي كما تبين الدراسة التسلسل التاريخي للغزو المغولي للعالم الإسلامي مع بيان الخطأ الكبير الذي وقعت فيها الدولة الخوارزمية في علاقتها مع المغول كما تناولت الدراسة خطأ مزاعم جاك ريسلر وتصويره بأن سقوط الخلافة العباسية كان بمثابة نهاية العالم الإسلامي؛ لأن المسار التاريخي يظهر قدرة الحضارة الإسلامية على النهوض وإعادة التشكيل والتعافي بعد الصدمات.

كلمات مفتاحية: الغزو، المغول، جاك ريسلر، الحضارة العربية.

Abstract:

This study presents a critical analytical examination of the treatment of the Mongol invasions in the book *The Arab Civilization* by the French orientalist Jacques Risler, highlighting his emphasis on internal factors in explaining the decline of Islamic civilization. The study demonstrates the weakness of this claim, arguing that the Mongol invasion resulted from a combination of factors, both internal and external. It also outlines the historical sequence of the Mongol expansion into the Islamic world and clarifies the major strategic error committed by the Khwarazmian state in its dealings with the Mongols. Furthermore, the study addresses inaccuracies in Risler's assertions—particularly his portrayal of the fall of the Abbasid Caliphate as equivalent to the end of the Islamic world—showing instead that the historical trajectory reveals the capacity of Islamic civilization to recover, reorganize, and renew itself after major shocks.

Keywords: invasion, Mongols, Jacques Risler, Arab Civilization

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: إن موضوع الغزو المغولي للعالم الإسلامي يمثل مرحلة مفصلية في التاريخ الإسلامي، لما ترتب عليه من أثر كبير وتحولات عميقة في صميم الحضارة العربية والإسلامية على الصعيد السياسي والعسكري، كان أبرزها سقوط الخلافة العباسية في بغداد، وقد حظيت هذه المرحلة باهتمام واسع في الدراسات الاستشراقية، ومن أهم الذين كتبوا عن تلك الحقبة المستشرق الفرنسي جاك ريسلر في كتابه: (تاريخ الحضارة العربية).

وتكمن أهمية الدراسة: أنها تتناول حدثاً تاريخياً غير مجرى العالم الإسلامي، كما تهدف الدراسة إلى تحليل طرح جاك ريسلر مع المرويات التاريخية الإسلامية، وتصحيح بعض التعميمات الخاطئة المرتبطة بسقوط الخلافة العباسية، كما تهدف الدراسة: إلى تحليل آراء جاك ريسلر لأسباب الغزو المغولي وسقوط الخلافة العباسية، وتصحيح دقة الأرقام

فصلية مُحكّمة تُعنى بالبحوث والدراسات العلمية والإنسانية والفكرية

العدد (١٨) السنة الخامسة رمضان ١٤٤٧ هـ آذار ٢٠٢٦ م



والروايات التي اعتمدها، كما تتمثل مشكلة الدراسة: في الطرح الاستشراقي الذي يميل إلى تفسير السقوط والتركيز على العوامل الداخلية مع التقليل من أثر العامل الخارجي.

ومن هنا تنطلق الدراسة من مجموعة أسئلة:

هل يقدم جاك ريسلر تفسيراً منطقياً لأسباب الغزو المغولي؟

ما مدى دقة الروايات التي اعتمدها؟

هل سقوط الخلافة العباسية نهاية للحضارة الإسلامية؟

تفترض الدراسة: إن الغزو المغولي، وسقوط الخلافة العباسية لا يمكن اختزاله بالعوامل الداخلية بل هو نتيجة عوامل مركبة داخلية وخارجية، وإن طرح جاك ريسلر رغم حياده واحتوائه على طروحات صحيحة؛ إلا أنه يعاني من لغة تعميم ومبالغة رقمية كبيرة في بعض المواضيع، كما تعتمد الدراسة على: منهج التحليل والمقارنة بين النصوص، والمنهج التاريخي المتسلسل في تتبع الأحداث.

محتويات الدراسة:

تمهيد: التعريف بالمؤلف والكتاب.

المحور الأول: أسباب الغزو المغولي لبلاد المسلمين.

المحور الثاني: الإطار التاريخي للغزو المغولي.

المحور الثالث: أسباب انهيار الحضارة الإسلامية.

خاتمة:

أهم النتائج التي توصلنا إليها.

قائمة المصادر والمراجع.

التمهيد: التعريف بالمؤلف والكتاب:

جاك ريسلر: مستشرق وكاتب فرنسي من القرن العشرين، وهو أستاذ في معهد الدراسات الإسلامية. نال جائزة الأكاديمية الفرنسية نظراً لاعتباره دراسة أساسية بالنسبة للذين يرغبون في معرفة الحضارة الإسلامية، كما عُرف عن جاك ريسلر اهتمامه الكبير بتاريخ الحضارة العربية والإسلامية، ودراساته ذات الطابع الحضاري التي تحاول قراءة مسار تطور العالم الإسلامي، وأسباب ضعفه وتحوله، من أشهر أعماله كتاب: «الحضارة العربية» الذي تناول فيه نشأة الحضارة الإسلامية وبنيتها الثقافية والسياسية وأسباب تراجعها.

يعد كتاب الحضارة العربية دسم في مادته غني بمعلوماته لمن يهتم بدراسة الحضارة العربية كما بين جاك ريسلر الهدف من تأليفه: لتعريف العالم الغربي بالحضارة الإسلامية واكتشاف الفرق بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية (١). واعتمد جاك ريسلر في كتابه على سرد الوقائع سواء في المكان أو الزمان فتناول الأزمنة السابقة قبل الإسلام، كما تناول الأثر الكبير للحضارة الإسلامية في الحضارات الغربية، وفي نهاية الكتاب تحدث ريسلر عن الصعود الحضاري الذي ما لبث أن أصيب بعوامل هدامة من الداخل: التراخي والانقسامات المذهبية، والضعف الإداري، والعوامل الاقتصادية والتزلف الذي أدى إلى التفكك الاجتماعي ومن الخارج: الحروب الكثيرة التي أضعفت البناء الكبير للدولة الإسلامية.

ويمكننا القول: إن كتاب الحضارة العربية لجاك ريسلر: هو بمثابة المرآة التاريخية التي حملت تاريخ وصورة الحضارة

(١) انظر: ريسلر، جاك، الحضارة العربية، ترجمة: خليل أحمد خليل، ط١، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ١٩٩٣ م، ص٨.

الإسلامية، كما أن القارئ لكتاب الحضارة العربية يجد أن جاك ريسلر التزم منهج الحياد قدر الإمكان، وكان موضوعيًا في أغلب الجوانب إلا في الجوانب التي اعتمد فيها على الوصف المكثف للأحداث فهو اعتمد على النقل أكثر من التحليل والتدقيق في الروايات التاريخية(٢).

المحور الأول: أسباب الغزو المغولي لبلاد المسلمين:

جاء في كتاب الحضارة العربية للمستشرق الفرنسي (جاك ريسلر) في حديثه عن أسباب الغزو المغولي لبلاد المسلمين، وذكر أن السبب الرئيسي: هو استسلام السلاجقة لحياة الترف رغم نفوذهم السياسي في البلاد، وكذلك انقسام الخلافة الإسلامية إلى ممالك وإمارات صغيرة بعضها قوي، والبعض الآخر في حالة صراع مستمر، بينما كانت هناك قوى خطيرة في الشرق تتأهب لغزو بلاد المسلمين(٣).

رغم اتفاق المصادر التاريخية حول ما ذكره جاك ريسلر إلا أن كلامه يعكس جانبًا من الدراسات الاستشراقية التي تفسر أسباب الانهيارات الحضارية، وحصرتها بعوامل داخلية لدى المسلمين مع تقليل أثر العوامل الخارجية المرتبطة بطبيعة القوى الغازية، ويمكن القول: أن هناك أسباب أخرى داخلية وخارجية مجتمعة كانت وراء الغزو المغولي لبلاد المسلمين، ويمكن حصرها بالنقاط الآتية:

أسباب سياسية:

ضعف الخلافة العباسية نتيجة لتسلط العساكر في بغداد وتحكمهم بقرارات الخلافة(٤)، كما إن تعاضم فرقة (الحشاشين)(٥) في المشرق الإسلامي الذين عاثوا في الأرض فسادًا، وبنوا الرعب في نفوس الناس، من أهم العوامل التي أسهمت في اضعاف شوكة المسلمين وتدهورت تدهورًا كاملاً الأمر الذي سهل على المغول مهمة احتلال بلاد المسلمين، والقضاء على الخلافة العباسية.

فضلاً عن ذلك هناك مغالطة تاريخية ذكرها (جاك ريسلر): وهي فكرة تعميم (ترف السلاجقة) التي جعلها إحدى أسباب الغزو المغولي للبلاد؛ لأن فيها مفارقة زمنية؛ إذ لم يكن لدى السلاجقة نفوذ حقيقي في المشرق الإسلامي عند بدايات التوسع المغولي؛ لأنهم كانوا في مرحلة أفول سياسي، حيث انتهت دولتهم في المشرق فعليًا عام

(٢) انظر: اليعقوبي، نعيمة سعيد، دراسة نقدية في فكر المستشرقين جاك ريسلر وفان فلوتن، كلية التربية، جامعة الجفارة، العدد ٨، ٢٠٢٣ م، ص ٢٤، ص ٢٥.

(٣) انظر: ريسلر، المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٤) انظر: الخالدي، إسماعيل عبد العزيز، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ط ١، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٣٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ص ٥٥.

(٥) الحشاشين: وهي فرقة تأسست على يد الحسن بن الصباح في إيران، إذ أخذ في الاستيلاء على البلاد والقلاع في (فوهستان)، ومن أهم القلاع التي سيطر عليها هي: (قلعة الموت) التي استولى عليها سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م) فصارت عاصمة لهم، ولم يقفوا عند هذا الحد بل استطاعوا السيطرة على المنطقة الواقعة جنوب بحر قزوين بأكملها، واشتهرت هذه الفرقة في التاريخ بأنهم محاربون أشداء واهتزت بسببهم الخلافة، وكان لهم جهاز سري رهيب يتكون من شبان مغامرين يجيدون فن التخفي، وكانوا يتدربون على أساليب القتال وطرق الاغتيال وسفك الدماء، كما قاموا بارتكاب أعمال إجرامية ضد من يخالفهم من الطوائف الإسلامية، واغتيل عدة شخصيات من الدولة السلجوقية، وكان هدفهم وراء ذلك: هو بث الرعب وإشاعة الفوضى في نفوس المخالفين لمذهبهم، واستمرت هذه الفرقة تحكم تلك الأقاليم ١٧٧ سنة حتى تم القضاء عليها على يد المغول وقائدهم هولاكو سنة (٦٥٣ هـ / ١٢٥٦ م). انظر: الخالدي، المرجع السابق، ص ٥٣، ص ٨٥.

(٥٥٢/هـ ١١٥٦ م) (٦)؛ بينما بداية الزحف المغولي عام (٦١٦/هـ ١٢١٩ م) أي بعد أكثر من ٦٠ سنة (٧) هذا إذا ما استثنينا (سلاجقة العراق) الذين انتهت دولتهم فعلياً عام (٥٩٠/هـ ١١٩٣ م) (٨)؛ أي بعد ٢٦ سنة من انطلاق الحملة المغولية على بلاد المسلمين.

إن المشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي كان تحت سيطرة الدولة الخوارزمية، كما تذكر المصادر التاريخية أن هناك سبب مباشر وراء الغزو المغولي لبلاد المسلمين: وهو حادثة مقتل التجار المغول في مدينة أترار (٩) بأمر من أحد حكام الدولة الخوارزمية، ويدعى: ينال خان (١٠)؛ الذي اعتدى على إحدى القوافل التجارية للمغول، وقام بقتل التجار، واستولى على ما كان في حوزتهم من أموال وبضائع ثمينة، ولا بد من الإشارة إلى أن المغول بعد أن تمكنوا من الاستيلاء على البلاد المجاورة لحدود الدولة الخوارزمية؛ عقد الامبراطور جنكيز خان معاهدة تجارية مع السلطان محمد خوارزم شاه (١١)؛ اتفقا فيها على جعل التجارة حرة بين أملاكهما وتعهدا بالمحافظة عليها.

إلا أن هذه الحادثة فجرت غضب جنكيز خان؛ واعتبر الأمر خيانة للاتفاق فأرسل سفارة إلى السلطان محمد خوارزم شاه وطلب منه تسليم حاكم أترار؛ حتى يقتص منه حقناً للدماء إلا أن السلطان محمد خوارزم شاه رفض طلبه (١٢) والسبب؛ أن السلطان تربطه صلة قرابة مع ينال خان كما أن السلطان يعتقد أنه إذا سلم ينال خان أقر بضعفه أمام جنكيز خان فقام بقتل رسل جنكيز خان فكانت هذه الحادثة الشرارة المباشرة التي أطلقت الغزو المغولي تجاه بلاد المسلمين (١٣).

(٦) انظر: عدوان، أحمد محمد، موجز في تاريخ دويلات المشرق الإسلامي، د. ط، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ص ١٨٨.

(٧) انظر: الصياد، فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ، د. ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٩٨٠م، ج ١، ص ١١٢.

(٨) انظر: عدوان، المرجع نفسه، ص ١٩٠.

(٩) مدينة أترار: وهي مدينة تقع على الساحل الغربي لنهر سيحون، وتأتي أهميتها على وجه الخصوص من الناحية التجارية؛ إذ أنها ملتقى التجارة بين شرق آسيا وغربها، فضلاً أنها تعتبر مفتاحاً لإقليم ما وراء النهر. انظر: الصياد، المرجع نفسه، ج ١، ص ١٠٣.

(١٠) ينال خان: يطلق عليه بعض المؤرخين اسم (ينال جوق)، ولقبه: (غاير خان)، كان يحكم مدينة (أترار) ويعرف بأنه: شخصاً متعجباً مغروراً معتمداً على قرابته من والدة السلطان ونفوذها الذي لا حد له، وعندما وقع بصر ينال خان على ما في حوزة التجار وطمع في ما عندهم من أموال ونفائس فكتب إلى السلطان وأدخل في نفسه أنهم جواسيس في زي تجار فصدقه السلطان، وطلب إليه أن يراقبهم لكن ينال خان لم يقف عند هذا الحد بل قتل التجار، واستولى على امتعتهم، الأمر الذي فجر الصراع بين المغول والدولة الخوارزمية، وجعل المغول يغزون العالم الإسلامي، وأما ينال خان علم بمصيره فأمر بتحسين المدينة والدفاع عنها، فصمد بوجه المغول خمسة أشهر حتى وجد نفسه محاصراً ثم وقع أسيراً بيد المغول، فأرسلوه إلى معسكر جنكيز خان فأمر بأن تصهر الفضة وتسكب في عينيه وأذنيه حتى مات بهذه الطريقة البشعة. انظر: الصياد، المرجع السابق، ص ١١٣.

(١١) محمد خوارزم شاه: هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش حكم ٢١ عاماً وبضعة شهور، اتسع ملكه ولم يملك بعد الدولة السلجوقية أحد مثله، كان عالماً بالفقه والأصول، محباً للعلماء ومعظماً لأهل الدين، بعد أن هجم التتار على الدولة الخوارزمية قاموا بقتل أثر خوارزم شاه من مكان إلى آخر فتبعوه إلى الري، فخرج من الري ولا يعرف عن مصيره، فتارة يقال: أنه مات في همدان واخفي موته، وتارة يقال: أنه عاد إلى طبرستان وركب البحر فتوفي في جزيرة هناك، وبالجملة فقد عدم ثم صح موته ببحر طبرستان. انظر: ابن الأثير، أبا الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، ت (٦٣٠/هـ ١٢٣٣ م)، ط ٤، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، مجلد ١، ص ٤٠٧.

(١٢) انظر: الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص ٧٨؛ حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول، د. ط، دار الفكر العربي للطبع والنشر، القاهرة. مصر، ١٩٤٩م، ص ١٣٥.

(١٣) انظر: الصياد، المرجع نفسه، ص ١٠٥.

فصلية مُحكّمة تُعنى بالبحوث والدراسات العلمية والإنسانية والفكرية

العدد (١٨) السنة الخامسة رمضان ١٤٤٧ هـ آذار ٢٠٢٦ م



أسباب عسكرية:

إن المغول كانوا يعيشون حياة البداوة بكل مقوماتها، إلا أن لديهم مقومات عسكرية كبيرة تجعلهم يتفوقون على خصومهم؛ بسبب التكتيكات الحربية، والتنظيم العسكري، والسرعة العالية في القتال، والاعتماد على أسلوب الكر والفر الأمر الذي أثار الرعب في نفوس أعدائهم كما تميز الجندي المغولي؛ بالانضباط والطاعة العمياء لقادته، وكان من عاداته إذا سار للقتال حمل معه كل ما يحتاجه أثناء الحرب فيحمل آلات لشحذ رمحه، كما يحمل الأبر والخيوط ليستخدمها عند الحاجة، على عكس الجيوش الإسلامية التي كانت تفتقر للتنسيق، وتعتمد على الأساليب التقليدية المعروفة في القتال (١٤)، فضلاً عن ذلك إن كثير من المدن الإسلامية سقطت قبل وصول النجدة؛ بسبب ضعف تحصينات المدن، وخيانة بعض القادة بالإضافة إلى ذلك اعتمد المغول على العامل النفسي عن طريق بث الرعب الذي اشتهروا به حتى ذكر بعض المؤرخين: إن المغول نكلوا بالمسلمين، وتفننوا في تعذيبهم بشتى الوسائل والأساليب حيث قاموا بقتل النساء والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة! (١٥).

أسباب اقتصادية:

إن المستشرق الفرنسي جاك ريسلر اغفل عن البعد الاقتصادي وراء اندفاع المغول لغزو بلاد المسلمين، وهذا الاغفال يؤدي إلى تفسيرات ضيقة؛ لأن ازدهار الحضارة الإسلامية اقتصادياً جعل مدنها هدفاً مغرباً وعرضة للغزو المغولي، فضلاً عن ذلك أطماع المغول الذين كانوا يسعون للهيمنة، والسيطرة على طرق التجارة بين الصين وآسيا الوسطى والشرق الأوسط، بالإضافة إلى ذلك غنى المدن الإسلامية الكبرى مثل: (بخارى، سمرقند، بغداد) والتي كانت تمثل محاور تجارية مهمة باللغة الأهمية (١٦) حتى أن ريسلر أشار إلى ذلك بالقول: عندما لا تتوفر وسائل العيش يهاجر سكانها إلى الأراضي الأكثر ثراء وهذا هو التفسير الدائم لحمالات الغزو عبر التاريخ (١٧).

أسباب حضارية واجتماعية:

أغفل جاك ريسلر عن العامل المغولي نفسه كقوة تاريخية كبيرة حيث اعتمد المغول على سياسة التوسع والغزو واضحت جزءاً من ثقافتهم السياسية والعسكرية، والتوسع بالنسبة لديهم يمثل ديمومة حياة، ووسيلة للبقاء معتمدين في ذلك على السلب والنهب وكسب الموارد وفرض الهيبة بالقوة، حيث أسس جنكيز خان دستوراً عسكرياً يقوم على الطاعة العمياء وقام بجتياح بلاد الصين واخضع بلادهم مدة نصف قرن وقام بغزو آسيا الوسطى وأوروبا الشرقية كذلك.

كما أن الشعب المغولي يعد من الشعوب الرعوية التي تكره الزراعة على الرغم من كونها تسكن في مناطق خصبة ولهذا نجد أن الهجرة من مكان إلى آخر وعدم الاستقرار من أهم الصفات التي يمتاز بها المغول (١٨) فضلاً عن ذلك إن المغول لم تكن لديهم بنية حضارية على عكس المسلمين كان لديهم حضارة إسلامية مستقرة فكان التدمير سمة

(١٤) انظر: الجويني، علاء الدين عطا ملك، ت (٦٨١هـ/١٢٨٣م)، تاريخ فاتح العالم جهان كشاي، تحقيق: محمد عبد الوهاب القزويني، ترجمة: محمد السباعي، ط ١، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٧٠؛ فهمي، عبد السلام عبد العزيز، تاريخ الدولة المغولية في إيران، د.ط، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م، ص ٢٧؛ الخالدي، المرجع السابق، ص ٣٩؛ حمدي، حافظ أحمد، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، د.ط، دار الفكر العربي للطبع والنشر، مصر، ١٩٥٠م، ص ١٣٩.

(١٥) انظر: ابن الاثير، المصدر السابق، م ١٠، ص ٤٠٩.

(١٦) انظر: حمدي، المرجع نفسه، ص ١٤٥.

(١٧) انظر: ريسلر، الحضارة العربية، ص ٢٦٧.

(١٨) انظر: حمدي، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص ١٣٧.

أولى لغزوهم قبل أن يتأثروا لاحقاً بالحضارة الإسلامية (١٩).
أسباب إدارية:

اتفقت المصادر التاريخية إن الانقسام السياسي والتفكك كان عاملاً مساعداً لكنه سبباً غير كافٍ للدمار الذي أحدثه المغول، فضلاً عن ذلك أن المغول لم يحتل بلد بعينه بل امتدت حملاتهم إلى الصين وأوروبا وآسيا مروراً بالمشرق الإسلامي والعراق وبلاد الشام إلى مصر (٢٠)، ولهذا يمكن القول: إن الفساد الذي ضرب بعض جوانب الدول الإسلامية، وانتشار الظلم والبعد عن قواعد الإسلام الحنيف ومبادئه؛ جعل الكثير من السكان غير متحمسين للقتال وافقدهم روح التضحية مما أضعف الروح المعنوية في حروبهم مع المغول، كما أن البلاد الإسلامية كانت تعاني من تفكك وانقسام شديد تسودها الحروب والفتن الداخلية، ويسيطر عليها حكام يؤثرون مصالحهم الشخصية على مصالح البلاد والعباد، انشغلوا بملذات الدنيا وتناسوا الخطر الذي ينتظرهم الذي لم يدركوا حجمه إلا بعد فوات الأوان (٢١).

الخور الثاني: الإطار التاريخي للغزو المغولي:

الغزو المغولي لبلاد المشرق الاسلامي:

تناول المستشرق الفرنسي جاك ريسلر الغزو المغولي لبلاد المشرق الإسلامي، وذكر أن جنكيز خان بدأ يضع يده على آسيا الوسطى سنة (٦١٤هـ/١٢١٦م) حتى أرسل جيش مغولي قوامه ٦٠ ألف مقاتل تمكن من احراز النصر على جيش محمد بن خوارزمشاه، كما قام جنكيز خان باجتياح بخارى حتى اعلنت استسلامها مع مدينة سمرقند بعد أن قام بعمل بمجازر فيهما لدرجة أنهما لم تتمكنوا من النهوض ومعاودة الحياة الطبيعية بعد مئة عام، كما قام أحد أبناء جنكيز خان باجتياح خراسان ودمر مرو أما نيسابور فقد قاومت ببسالة قبل أن يتمكن من احتلالها سنة (٦١٨هـ/١٢٢١م) ثم قام بنهب الري (٢٢)، وبذلك جرى تدمير المراكز الثقافية في المشرق الإسلامي حتى تحولت المساجد إلى ركام والمكتبات إلى رماد وتم ذبح الأهالي بالسيف وكانت الغاية من تلك الوحشية هي القضاء على أي محاولة للمقاومة (٢٣)، وتوجه جيش آخر بقيادة أوغولي وهو أحد أبناء جنكيز خان وخليفته على رأس جيش قوامه ٣٠٠ ألف مقاتل فاحتل أذربيجان وبلاد الرافدين الشمالية وجورجيا وأرمينيا وأدى موت أوغولي سنة (٦٣٩هـ/١٢٤١م) إلى انقضاء ما بقي من مدن إسلامية (٢٤).

من خلال هذا العرض لما ذكره جاك ريسلر للغزو المغولي لبلاد المشرق الإسلامي نلاحظ أنه اعتمد في أسلوبه على السرد المكثف أكثر منه إلى التحليل المنهجي حيث أصاب في جانب وبالغ في جانب آخر؛ إذ يركز في أسلوبه على الأثر أكثر من البنية فعند حديثه عن المغول بوصفهم قوة همجية هدفها التدمير وبث الرعب صحيح، وقد تناولت المصادر التاريخية ذلك في مرحلة الغزو المغولي الأولى (٢٥)، ولكنه اغفل عن التحول السريع للمغول من قوة غازية

(١٩) انظر: حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٣٦.

(٢٠) انظر: الصياد، المغول في التاريخ، ص ١٧٩، ١٨٤، ١٨٦.

(٢١) انظر: الخالدي، المرجع السابق، ص ٤٣.

(٢٢) انظر: ريسلر، الحضارة العربية، ص ٢٦٧.

(٢٣) انظر: ريسلر، المرجع نفسه، ص ٢٦٨.

(٢٤) انظر: ريسلر، المرجع نفسه، ص ٢٦٨.

(٢٥) انظر: ابن كثير، أبا الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م)، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط ١، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان، الجيزة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج ١٧، ص ٣١٦.

إلى سلطة حكم، واعتمدوا على المسلمين في ذلك، هذا غير انصهارهم في الإسلام لاحقاً (٢٦).

كما تذكر المصادر التاريخية: إن المغول ارتكبوا المجازر في بخارى وقاموا بسبي النساء والأطفال وقاموا بإذلال زعماء البلد وجردوهم من أموالهم ثم قاموا بقتلهم (٢٧)، وكذلك فعل المغول بأهل سمرقند المجازر حيث تذكر المصادر: إن المغول لما دخلوا المدينة نادوا بالناس بالأمان فلما خرج الناس قاموا بقتلهم جميعاً، وأخذوا أموالهم وخرّبوا مدّتهم عام (١٢٢٠هـ/١٢٢٠م) (٢٨).

لكن هناك إشكالية زمنية في طرح جاك ريسلر حيث وصف المدن الإسلامية أنها كيان حضاري تم سحقه ولم ينهض إلا بعد مئة عام لكنه لم يوضح مفهوم النهوض؟ حيث تذكر بعض المصادر التاريخية إن الحياة الإدارية في بعض المدن الإسلامية قد عادت تدريجياً حتى في ظل الحكم المغولي نفسه بل أن المغول قاموا برعاية العلماء (٢٩)، وهناك إشكالية أخرى حيث ذكر جاك ريسلر أن أحد أبناء جنكيز خان قاد جيشاً من ٣٠٠ ألف مقاتل! وهذا الرقم كبير جداً حيث أغلب الدراسات الحديثة تشكك في هذه الأرقام مما يظهر لدينا أن جاك ريسلر ينقل دون تدقيق أو تحليل للنصوص، كما إن الرقم لم تتطرق له المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ المغول بصورة عامة أو غزو المغول لأذربيجان بصورة خاصة، ولكنها اتفقت مع ما ذكره جاك ريسلر حول ما فعله المغول بسكان أذربيجان من مجازر وقتل ودمار (٣٠)، ثم توجهوا بعد ذلك إلى أرمينية فلم يستطيعوا مواجهة المغول وقتل من سكانها عدد لا يحصى (٣١) حتى بلغوا جورجيا فائتخونا فيهم قتلاً وأسرًا (٣٢)، وعلى أثر ذلك سقطت الدولة الخوارزمية عام (٦٢٨هـ/١٢٣١م) (٣٣)، وخضعت فارس بأكملها للمغول، وبذلك أصبح الطريق معبداً إلى بغداد لإسقاط الخلافة العباسية (٣٤).

الغزو المغولي لبغداد واسقاط الخلافة العباسية:

تناول جاك ريسلر الغزو المغولي لعاصمة الخلافة العباسية بغداد وذكر أن وزيرها الأول خرج لمناقشة شروط الاستسلام لكن هولاء لم يستقبله، وكان آخر خليفة عباسي وهو المعتصم بالله! زاهداً وعالمًا متكرساً للدين والكتب، ويقال: أن هولاء سمع بنبوءة تقول: لئن قتل الخليفة العالم كله سيهتز، والشمس ستتكسف، والمطر سيتوقف عن السقوط، ولكن لأن ثقته بمنجميه كبيرة لم يتأثر لتلك النبوءة، فدخل بجيشه إلى بغداد عنوة واسقط الخلافة العباسية، وجاء الخليفة مع ولديه و ٣٠٠ من كبار موظفيه مستسلمين بلا قيد أو شرط ويقال: أن ٨٠٠٠٠٠ الف نسمة ذبحوا وأعدم ٢٤ ألف عالم دين وجرى نهب وتدمير المدينة وقذفت الكتب في النهر حتى أصبحت مياه دجلة سوداء جراء حبر الكتب والمخطوطات التي كانت فيه وبعدها ارغم الخليفة على كشف مقدار ثروته وتم إعدامه مع عائلته وهكذا منذ ٦٠٠ سنة لم يعد للعالم الإسلامي زعيم ولا قائد (٣٥).

قبل البدء بمناقشة ما ذكره جاك ريسلر لا بد من الإشارة إلى خطأ حيث سمى ريسلر آخر الخلفاء العباسيين (المعتصم

(٢٦) انظر: ابن كثير، المصدر نفسه، ج ١٧، ص ٦٧٦.

(٢٧) انظر: المدائني، ابن أبي الحديد، ت (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، حملات الغزو المغولي للشرق، تعليق: مختار جبلي، د. ط، دار لارماتون، باريس، ١٩٩٥م، ص ٣١.

(٢٨) انظر: المدائني، المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٢٩) انظر: ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٧، ص ٦٧٦.

(٣٠) انظر: المدائني، المصدر نفسه، ص ٤٢؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٥٦.

(٣١) انظر: المدائني، المصدر نفسه، ص ٤٦.

(٣٢) انظر: المدائني، المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٣٣) انظر: حمدي، المرجع نفسه، ص ٢٢٥.

(٣٤) انظر: المدائني، المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٣٥) انظر: ريسلر، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

بالله) وهذا خطأ لأن المعتصم بالله هو محمد بن هارون الرشيد (ت ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م) وترتيبه الثامن بين خلفاء بني العباس (٣٦)؛ بينما الصحيح هو (المستعصم بالله) عبد الله بن منصور (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) آخر خلفاء بني العباس في بغداد (٣٧)، ولا نعلم إن وقع سهواً من قبل المؤلف أو المترجم لأني لم أقف على النسخة الفرنسية لكن إذا ثبت أن جاك ريسلر ذكر ذلك معناه: أنه لم يتعامل بشكل دقيق بالسرد التاريخي للتفاصيل الإسلامية وهذا يضعف الثقة بمضمون الكتاب.

كما ذكر ريسلر في حديثه عن شخصية الخليفة المستعصم بأنه كان زاهداً وعالمًا متكرسًا للدين والكتب وهذا صحيح ذكرته بعض المصادر التاريخية مع عدم اغفال نفس المصادر عن جانب آخر من شخصية الخليفة حيث انتقدوا فيه ضعف شخصيته السياسية، وقلة خبرته في إدارة الدولة، واعتماده على بطانته من حوله، وسوء تقديره للخطر المغولي (٣٨)، رغم عدم موافقتنا لبعض المصادر التاريخية التي حملته وحده مسؤولية سقوط بغداد وإنما عوامل مجتمعة أسهمت في انهيار الخلافة العباسية قد أوردنا بعضاً منها في المحور الأول (٣٩).

أما عن النبوءة التي ذكرها ريسلر لم يوضح من أين خرجت؟ وهنا لابد من التوضيح أنه لا يوجد اعتقاد لدى المسلمين بذلك، والروايات التي وردت حول النبوءة في بعض المصادر جاءت بصيغة الخبر دون تصديق، وذكرت: أن - بعض الناس - كانوا يعتقدون أن قتل الخليفة سيجلب الشر كما أن أحد المنجمين حاول ثني هولوكو عن الزحف باتجاه بغداد فأخبره أن هذه الحملة سوف تحدث خللاً في نظام الكون، ويمرض الخيل والجنود، والشمس سوف تغيب ولا تشرق، وينقطع المطر (٤٠). ولم تتناول هذه المصادر النبوءة كاعتقاد شائع لدى المسلمين، كما أن النبوءة وردت بصيغ وعبارات مختلفة مما تضعف الرواية، حيث ذكرت بعض الروايات أن هولوكو تئيب قتل الخليفة المستعصم وخشي أن يقع شيء من دمه على الأرض خوفاً من أن يؤخذ بثأره (٤١)، ومصادر أخرى تذكر: أن هولوكو قتل المستعصم دون أن يريق دمه جرياً على عادة المغول أنهم لا يسفكون دماء الملوك والأكابر (٤٢). أما بخصوص ما ذكره ريسلر عن أعداد الضحايا من سكان بغداد فيه مبالغة كبيرة جداً لأن من يعرف مدينة بغداد وحدودها الإدارية في ذلك الزمن يجعلنا نستبعد هذا العدد الكبير ولا بد من الإشارة ليس ريسلر وحده من تناول هذا العدد بل أن هناك بعض المؤرخين من تناول ذلك وهم ينقلون عن غيرهم (٤٣)، والأمر الآخر: أن أعداد الضحايا بين المصادر التاريخية متفاوتة، ولكنها مجمعة أن المغول استحلوا بغداد وقتلوا خلق كثير من أهلها حتى بلغ

(٣٦) انظر: الزركلي، خير الدين، الإعلام، ط ١٥، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ٢٠٠٢م، ج ٧، ص ١٢٧.

(٣٧) انظر: الزركلي، المرجع نفسه، ج ٤، ص ١٤٠.

(٣٨) انظر: ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا ت (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٣٣٣؛ العريني، السيد الباز، المغول، د.ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢١٤.

(٣٩) انظر: المحور الأول

(٤٠) انظر: ياسين، عبد علي، العراق في عهد المغول الايلخانيين من ٦٥٦هـ - ٧٣٦م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ص ١٥٧.

(٤١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ٣٥٩.

(٤٢) انظر: النويري، أحمد بن عبد الوهاب، ت (٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفى فواز، حكمت كشلي فواز، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د.ت، ج ٢٧، ص ٢٥٨.

(٤٣) انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، الخبر عن دولة التتر، تحقيق: أحمد عمراني، ط ١، دار الفارابي، بيروت - لبنان، ٢٠١٣م، ص ٢٦٥؛ الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٦٥.

عدد ضحايا المغول ٨٠ ألف نسمة(٤٤)، وبعض المصادر اكتفت بالقول: حدثت إبادة وقتل خلق كثير ولم تحدد عدد الضحايا(٤٥).

أما عن تصوير ريسلر لسقوط الخلافة العباسية أنها نهاية للقيادة الإسلامية فهذا تصوير خاطئ ومحاولة لربط وحدة الإسلام بقيادة واحدة فإذا انتهت هذه القيادة انتهى كل شيء بعدها، وهذا خطأ؛ إذ لا يمكن تجاهل قيام ممالك إسلامية قوية في مصر مثل: دولة المماليك (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) (٤٦) وتغافل عن احياء الخلافة العباسية في القاهرة (٦٥٧هـ-٩٢٣هـ/١٢٦١-١٥١٧م) (٤٧)، فضلاً عن ذلك دخول المغول الإسلام الذين اصبحوا مادة الإسلام ومحمه(٤٨).

الغزو المغولي لبلاد الشام ومصر:

ذكر جاك ريسلر أنه في عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) استولى هولوكو على حمه وحمص وحلب حيث يقال: أن ٥٠ ألف شخص قتلوا بحد السيف، ثم اضطر هولوكو للعودة إلى منغوليا حيث كان شقيقه الخان الأكبر قد مات (٤٩). رغم ذلك استمر جيشه بالتقدم حتى احتل سورية ولكنه في عين جالوت بالقرب من الناصرة اصطدم بجيش مصري بقيادة قطز(٥٠) وبيبرس(٥١) الذين احرزوا انتصاراً كبيراً فحمى مصر وربما أوروبا من الخطر المغولي. وعندما انكفأ

(٤٤) انظر: العريني، المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٤٥) انظر: الهمذاني، رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ت(٧١٨ هـ / ١٣١٨م)، ترجمة: محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، د.ط. دار احياء الكتب العربية، د.ت، م ٢، ج ١، ص ٢٨٨؛ الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص ٨٩؛ الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف، الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي، د.ط، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص ٢٠١.

(٤٦) انظر: هاني فخري عطية الجزائر، النظام العسكري في دولة المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، غزة، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٢٦.

(٤٧) انظر: العبادي، أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، د.ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص ١٧٩؛ بخيت، فائز علي، الخلافة العباسية بعد الاحتلال المغولي لبغداد (٦٧٦ ٦٥٦هـ / ٨٥٧٧ ٨٥٥٨م)، مجلة كلية العلوم الإسلامية، عدد ٢، م ١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص ١٢١.

(٤٨) انظر: الخالدي، المرجع نفسه، ص ١٦٩.

(٤٩) انظر: ريسلر، الحضارة العربية، ص ٢٦٨.

(٥٠) قطز: المظفر سيف الدين بن عبد الله المعزي، ثالث ملوك المماليك في مصر والشام، كان مملوكاً للمعز (أبيك) التركماني، وترقى إلى أن كان في دولة المنصور بن المعز (أتابك) العساكر، ثم خلع المنصور وتسلطن مكانه سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) وخلع على الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وجعله (أتابك) العساكر وفوض إليه جميع أمور المملكة، ونهض لقتال التتار وكانوا بعد تخريب بغداد قد وصلوا إلى دمشق وهددوا مصر فجمع الأموال والرجال وخرج من مصر فلقى جيشاً منهم في عين جالوت فانتصر عليه سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، وطارد فلوله إلى بيسان فظفر بهم، ودخل دمشق في موكب عظيم وعزل من بقي من أولاد بني أيوب واستبدل بهم من اختارهم من رجاله، ورحل يريد مصر وبينما هو في الطريق تقدم منه أتابك عسكره بيبرس ووراه عدد كبير من امراء الجيش فقتلوه ودفن في القصر ثم نقل إلى القاهرة سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م). انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ٢٠١.

(٥١) بيبرس: ركن الدين الملك الظاهر بيبرس العلاني البندقداري الصالحي، صاحب الفتوحات، ولد في أرض القبحاق سنة (٦٢٥هـ/١٢٢٨م)، وأسر ثم بيع في سيواس ثم نقل إلى حلب ومنها إلى القاهرة فاشترته الأمير علاء الدين أيديكين البندقدار، وبقي عنده فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ أخذ بيبرس فجعله في خاصة خدمه، ثم اعتقه، فترقى حتى أصبح (أتابك) العساكر في مصر في أيام الملك المظفر قطز وقاتل معه التتار في فلسطين، ثم اتفق مع امراء الجيش على قتل قطز فقتلوه، وتولى بيبرس

المد المرعب خلف وراءه بلدًا محطَّمًا من حيث بنيته واقتصاده (٥٢).

من يقرأ كلام جاك ريسلر وطريقة معالجته للحملة المغولية على الشام؛ يلاحظ أنها اتسمت بالتعميم والتركيز على سياق موحد لاحتلال المدن بينما المصادر التاريخية تناولت الغزو المغولي لكل مدينة بشكل منفرد؛ لأن هناك تفاوت كبير وواضح في طبيعة الدخول لتلك المدن فبعض المدن دخلها المغول وقتلوا أهلها وخرّبوا مدنها، والبعض الآخر تمكنوا من دخولها بعد مقاومة، والبعض الآخر دخلوها دون مقاومة تذكر؛ بل بتسويات سياسية، ولذا فإن تعميم تجربة الغزو المدمر على كل مدينة نزعاً تبسيطية خاطئة أكثر من كونها نقل للوقائع التاريخية بصورة صحيحة. على سبيل المثال: تناولت المصادر التاريخية الغزو المغولي لحلب وذكرت أن هولوكو حاصر حلب وطلب من أميرها تورانشاه (٥٣) التسليم ولكن الأخير رفض فأخذوا يدكونها بالجنايق حتى اضطرت للتسليم وبعد ذلك قاموا بقتل السكان حتى امتلأت منهم الطرقات (٥٤). أما حمص وحماه دخلها المغول دون مقاومة تذكر ولم تشهدا خراباً أو تدميراً كالذي حصل في بغداد فالوقائع لم تكن على وتيرة واحدة، فتذكر المصادر التاريخية: أن سقوط حلب أثار الفزع والخوف لدى المسلمين فوصل بعض الأمراء ومنهم الأشرف موسى (٥٥) صاحب حمص إلى هولوكو وطلب منه الأمان فقبل منه ذلك، بشرط أن تكون اقطاعاً وراثياً له من قبل هولوكو (٥٦)، وكذلك أهل دمشق فقد حرص أعيان المدينة على أن يجنبوا المدينة ما حل في حلب من دمار وخراب فجاءوا إلى هولوكو فأعطاهم الأمان (٥٧) غير أن قلعة دمشق أعلنت العصيان والتمرد فشرع المغول في حصارها عام (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) ونصب عليها الجنايق فاستسلمت للمغول فنهبوا جميع ما فيها (٥٨)، وهكذا تظهر الوقائع التاريخية أن سيطرة المغول على بلاد الشام كانت شديدة الوطأة على المسلمين (٥٩).

كما نلاحظ أن هناك قراءة ناقصة عند تناول الحملة المغولية على مصر حيث ذكر جاك ريسلر أن هولوكو انسحب

سلطة مصر والشام عام (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) وتلقب بالملك القاهر أبي الفتوحات، ثم ترك هذا اللقب وتلقب بالملك الظاهر وكان شجاعاً يباشر الحروب بنفسه، وله وقائع هائلة مع التتار والافرنج الصليبيين وفي أيامه انتقلت الخلافة إلى مصر سنة (٦٥٩هـ / ١٢٦١م) توفي في دمشق سنة (٦٧٦هـ / ١٢٧٧م). انظر: الزركلي، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٧٩.

(٥٢) انظر: ريسلر، المرجع السابق، ص ٢٦٩.

(٥٣) تورانشاه: الملك المعظم، أبو المفاخر بن السلطان يوسف بن أيوب، ولد سنة (٥٧٧هـ / ١١٨٢م)، وكان كبير آل بيته وكان يتصرف في الخزائن والماليك، وكان فارساً شجاعاً عاقلاً وداهية، وكان مقدم العساكر الحلبية ولما أخذ هولوكو حلب عصت قلعتها، وبها الملك المعظم فحماها ثم سلمها بالأمان، ولم يعيش بعدها إلا أياماً وتوفي سنة (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م). انظر: الذهبي، أبا عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (٧٤٨هـ / ١٣٤٨م)، سير اعلام النبلاء، د. ط، بيت الأفكار الدولية، لبنان، ٢٠٠٤م، ج ١، ص ١٢٦٦.

(٥٤) انظر: الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص ٩٧.

(٥٥) الأشرف موسى: أبو الفتح موسى بن المنصور إبراهيم بن المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه، صاحب حمص، ملك بعد أبيه ثم أخذ الملك الناصر منه حمص، فلما استولى هولوكو على الشام حضر عنده الأشرف فأكرمه ورد عليه حمص وكان بطلاً شجاعاً ثم سار إلى خدمة السلطان الملك الظاهر ثم رجع إلى حمص فمرض وتوفي سنة (٦٦١هـ / ١٢٦٣م). انظر: الذهبي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٩٧٥.

(٥٦) انظر: العريني، المغول، ص ٢٤٥.

(٥٧) انظر: العريني، المرجع نفسه، ص ٢٤٧؛ سليمان، أحمد عبد الكريم، المغول والماليك حتى نهاية عصر الظاهر بيبرس ٦٤٨ - ٦٧٦هـ / ١٢٥٠ - ١٢٧٧م، ط ١، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م، ص ٥٩.

(٥٨) انظر: العريني، المرجع نفسه، ص ٢٤٧.

(٥٩) انظر: العريني، المرجع نفسه، ص ٢٤٨.

وعاد إلى منغوليا على أثر وفاة الخان الأكبر، وهذا صحيح لكن هناك أسباب أخرى أغفل عنها وهي: وقوع نزاع على العرش بعد وفاة جنكيز خان بين قوبيلاي وأخيه الأصغر أريق بوكا إذ فرضت عليه أن يعود ليتولى الفصل في هذا النزاع، فضلاً عن ذلك تعرض مملكته للتهديد من قبل ابن عمه بركة خان الذي يميل للمسلمين وكان ناقماً على المذابح التي فعلها المغول في بغداد وقتلهم الخليفة العباسي (٦٠).

كما ذكر جاك ريسلر أن قطز وبيبرس قدما خدمة للبشرية بوصفهما منقذين للعالم الإسلامي وهذا تصوير للوقائع من وجهة نظر استشراقية لا تتوافق مع المصادر التاريخية والإسلامية إذ لم تكن معركة عين جالوت معركة انقاذ حضاري وانقاذ للبشرية أكثر منها معركة دفاع عن مكتسبات المسلمين ودفع الخطر المغولي عن بلادهم، ولم تكن أوروبا في صلب حساباتهم خصوصاً أنهم كانوا في صراع مستمر مع الصليبيين قبل الغزو المغولي لبلادهم (٦١)، ولا شك أن معركة عين جالوت بالغة الأهمية؛ إذ جعلت المغول يتلقون الحسارة الأولى ويتعرض جيشهم لهزيمة ساحقة وأخى اسطورة الجيش الذي لا يقهر، وأعاد الروح المعنوية للمسلمين مما دفع المسلمين إلى مطاردة من بقي من فولو المغول وبالتالي أن هذا النصر الساحق انقذ الله به الإسلام والمسلمين، كما احتفظت مصر والمسلمين فيها على سيادة كاملة حتى أصبحت سلطة المماليك في مصر أقوى دولة لمدة تزيد على قرنين من الزمان (٦٢).

أما بخصوص ما ذكره ريسلر أن الغزو المغولي ترك بلد محطم اقتصادياً هذا صحيح ولكن في بعض المناطق ولا تنطبق بصورة عامة على جميع مناطق الشام ومصر كما تتجاهل هذه السردية سرعة التعافي النسبي في بعض المناطق مثل: دمشق ومصر (٦٣).

المحور الثالث: أسباب انهيار الحضارة الإسلامية:

ذكر جاك ريسلر: أن السبب الرئيسي لسقوط الحضارة الإسلامية المربع لا يكمن في الهجمة الآتية من الخارج؛ بل يكمن في الانحلال البطيء للقوى الداخلية وفي الفوضى السياسية الناتجة عن العجز والفساد وعن الكسل والجن والناجمة عن نقص معين في التكيف الطبيعي مع النمو المعياري السوي للحضارة وصحيح أن الخان الأكبر وبعد ٥٠ سنة من تقويض الإمبراطورية اعترف بالإسلام ديناً للدولة فكان ذلك انتصاراً معنوياً إلا أن وحدة الإمبراطورية ضربت في صميمها (٦٤).

من يقرأ كلام جاك ريسلر وطريقة تعاطيه مع الغزو المغولي للعالم الإسلامي الذي أدى إلى انهيار الخلافة العباسية في بغداد يجد أنه يعتمد على نظرية مفادها أن السقوط يبدأ من الداخل وتعرف في الدراسات الاستشراقية بنظرية (٦٠) انظر: العريني، المرجع نفسه، ص ٢٥٤.

(٦١) انظر: ابن واصل، محمد بن سالم، ت (٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: حسنين محمد ربيع، د. ط، دار الكتب المصرية، جمهورية مصر العربية، د. ت، ج ٤، ص ٩٢؛ المقرئ، أحمد بن علي، ت (٧٦٦هـ/١٣٦٤م)، السلوك في معرفة دول الملوك، ط ٢، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٣٧٦هـ-١٩٥٦م، ج ١، ص ١٦١؛ حمادة، محمد ماهر، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص ١٧؛ الغامدي، عبد الله سعيد محمد، جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات العليا التاريخية، جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ٢٩.

(٦٢) انظر: ابن تغري بردي، أبا المحاسن يوسف الأتابكي، ت (٨٧٤هـ-١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تعليق: محمد حسين شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ج ٧، ص ٧٣؛ العريني، المرجع السابق، ص ٢٦١.

(٦٣) انظر: الدهج، ايناس حسني، دولة المماليك البداية والنهاية، ط ١، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، ٢٠١٥م، ص ١٧١.

(٦٤) انظر: ريسلر، الحضارة العربية، ص ٢٦٩.

(الانحلال الداخلي) وهذه النظرية تعتبر أن الحضارة لا يمكن أن تسقط من الخارج ما لم تسقط من الداخل وهذا التفسير يركز على العوامل الأخلاقية الداخلية بعيداً عن المسببات والعوامل الخارجية(٦٥). كما استخدم جاك ريسلر مصطلح (الانحلال البطيء) ولم يحدد ما هو نوع هذا الانحلال؛ لأن الكلمة مطاطة تقبل أكثر من تفسير، فضلاً عن ذلك أن جاك ريسلر يحمل الداخل الإسلامي المسؤولية الكاملة وإن كنا نتفق معه في بعض النقاط مثل: الصراعات الداخلية، وضعف الخليفة العباسي، وسيطرة بعض أهل الأموال والنفوذ على القرار، بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية المتمثلة بالخراج المهرق التي أدى إلى كساد الحياة الزراعية والصناعية، فضلاً عن ذلك اتساع رقعة الدولة الإسلامية وبعد المسافة عن مركز الخلافة العباسية الأمر الذي أدى إلى استقلال بعض الأقاليم عنها(٦٦)، فضلاً عن ذلك تناولت بعض المصادر التاريخية عن وقوع خيانة من بعض المقربين من الخليفة العباسي الذين زينوا للمغول غزو بغداد واسقاط الخلافة العباسية(٦٧)، ومع ذلك لا يمكن تجاهل العوامل الخارجية مثل: التحولات العسكرية القوية للجيش المغولي، والتنظيم الدقيق حيث كان كل مغولي مجنّداً في خدمة دولته ومستعداً لحمل السلاح وخوض غمار القتال، وجميع هذه المعطيات شكلت تفوقاً واضحاً للقوة المغولية، وهي العامل الأساسي لانهيار الخلافة الإسلامية.

كما أن المغول لم يشكل خطرهم تهديداً للدولة الإسلامية وحدها بل وصل خطرهم إلى أوروبا حيث تمكن المغول من السيطرة على المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى بلاد القبچاق وروسيا، كما تمكنوا من السيطرة على أوكرانيا، ثم زحفوا باتجاه بولندا والمجر وسيطروا عليهما، وكذلك اسقطوا برلين والنمسا، وهكذا تمكن المغول من إخضاع بعض الأقاليم الأوروبية بنفس الطريقة التي سيطروا فيها على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي(٦٨) ومن قبل ذلك تمكنوا من إخضاع الصين والأقاليم المجاورة فلم تكن قوة المغول سهلة حتى يكون العامل الداخلي وحده هو السبب في انهيار الخلافة العباسية في بغداد(٦٩).

كما ذكر جاك ريسلر أن اعتراف الخان الأكبر بالإسلام بعد خمسين سنة بوصفه انتصاراً معنوياً، وهذا الطرح لا شك أنه صحيح لكن جاك ريسلر يجعل أثر الإسلام رمزي بينما من يقرأ التاريخ يجد أن دخول المغول للإسلام لم يكن نصراً معنوياً فقط بل نصراً مادياً؛ لأن تحول القوة الغازية إلى الإسلام أعاد تشكيل البنية السياسية والثقافية، كما أن دمج المغول في الحضارة الإسلامية حتى أصبحوا مادة الإسلام ورحمه، وتشكلت امارات إسلامية مغولية أسهمت بشكل فعال في نصرته الإسلام والمسلمين وإعادة بناء المؤسسات الإسلامية لتكون عامل مهم في صنع الحضارة الإسلامية بل وأسهمت بشكل كبير في نشر الدعوة الإسلامية حيث قام المغول بنشر الإسلام في جنوب

(٦٥) انظر: ديورانت ، ول وايريل ، قصة الحضارة ، ترجمة: زكي نجيب محمود، د.ط ، د.ن، بيروت ، تونس، د.ت، ج ٣، م ١، ص ١٥١؛ توينبي، أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد محمد الشبل ، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ٢٠١١م، ج ١، ص ٤٢٨؛ لويون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- جمهورية مصر العربية، ٢٠١٢م، ص ٦٢٧.

(٦٦) انظر: الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٤٩.

(٦٧) انظر: الصياد، المرجع نفسه، ص ٢٧١؛ الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص ٨٧.

(٦٨) انظر: الصياد، المرجع السابق، ص ١٨٦؛ هلال، عادل إسماعيل محمد، العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، ط ١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ١٩٩٧م، ص ٣٤؛ عمران، محمود سعيد، المغول وأوروبا، د.ط ، دار المعرفة الجامعية، د.ت، ص ٤٤.

(٦٩) انظر: الصياد، المرجع نفسه، ص ١٨٤؛ شبولر، بارتولد، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد اسعد عيسى، ط ١، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص ٢٩.

روسيا وسبيرييا وبلاد الصين والهند وغيرها من المدن التي خضعت تحت سلطانهم (٧٠).

الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد :

أوضحت الدراسة أن أسباب الغزو المغولي من خلال السياق التاريخي لا يمكن اختزاله بنظرية الانحلال الداخلي؛ لأنها تحمل طبيعة القوة المغولية بوصفها مشروعاً توسعياً.

إن الغزو المغولي لم يكن موجهاً إلى البلاد الإسلامية فقط بل شمل العالم حيث اسقط قوى كبرى في آسيا وأوروبا. أظهرت الدراسة أن الغزو المغولي كان نتيجة عوامل داخلية متمثلة بالتفكك السياسي وضعف الإدارة، وعوامل خارجية تمثلت بالقوة العسكرية والتنظيمية للمغول.

أظهرت الدراسة الفرق بين السرد المكثف، وبين التحليل التاريخي القائم على المقارنة بين النصوص في ضوء المصادر التاريخية المتنوعة.

أظهرت الدراسة خطأ التعميم على جميع المدن والمناطق الإسلامية من حيث حجم الدمار أو طريقة السقوط؛ إذ أظهرت الوقائع تبايناً واضحاً بين مقاومة وتسليم وتسويات سياسية.

القراءة الوصفية المكثفة للأحداث دون تمحيص للأرقام والروايات والمصطلحات تؤدي إلى مبالغات تاريخية وتقديرات غير منضبطة.

نتائج الغزو ورغم شدتها وقسوتها لم تمثل نهاية الحضارة الإسلامية، بل أدت إلى إعادة تشكيل سياسي وظهور قوى إسلامية في مناطق متعددة.

أظهرت الدراسة اندماج المغول في الإسلام لاحقاً، يدل على أن المسار التاريخي للحضارة الإسلامية يقوم على التحول وإعادة التشكيل لا على النهاية أو الانقطاع التام.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً. المصادر الأصلية:

١- ابن الاثير، أبا الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، ت(٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، ط ٤، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٢- ابن تغري بردي، أبا الحسن يوسف الأتابكي، ت(٨٧٤هـ-١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تعليق: محمد حسين شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٣- الجويني، علاء الدين عطا ملك، ت(٦٨١هـ/١٢٨٣م)، تاريخ فاتح العالم جهان كشي، تحقيق: محمد عبد الوهاب القزويني، ترجمة: محمد السباعي، ط ١، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٤- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت(٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، الخبر عن دولة التتر، تحقيق: أحمد عمراني، ط ١، دار الفارابي، بيروت- لبنان، ٢٠١٣م.

٥- الذهبي، أبا عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت(٧٤٨هـ/١٣٤٨م)، سير اعلام النبلاء، د. ط، بيت الأفكار الدولية، لبنان، ٢٠٠٤م.

٦- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا ت(٧٠٩هـ/١٣٠٩م) الفخري في الآداب السلطانية والدول (٧٠) انظر: عبد الحليم، رجب محمد، انتشار الإسلام بين المغول، د. ط، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٨٦م، ص ٦١؛ محمد، صبحي عبد المنعم، المغول والممالك السياسية والصراع، ط ١، العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م، ص ٣٣؛ الخالدي، المرجع السابق، ص ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٤.

فصلية مُحكّمة تُعنى بالبحوث والدراسات العلمية والإنسانية والفكرية

العدد (١٨) السنة الخامسة رمضان ١٤٤٧ هـ آذار ٢٠٢٦ م



- الإسلامية، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ٧- ابن كثير، أبا الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م)، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط ١، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان، الجيزة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ٨- المدائني، ابن أبي الحديد، ت (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، حملات الغزو المغولي للشرق، تعليق: مختار جبلي، د.ط، دار لارماتون، باريس، ١٩٩٥م.
- ٩- المقرئ، أحمد بن علي، ت (٧٦٦هـ/١٣٦٤م)، السلوك في معرفة دول الملوك، ط ٢، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٣٧٦هـ-١٩٥٦م.
- ١٠- النويري، أحمد بن عبد الوهاب، ت (٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفى فواز، حكمت كشلي فواز، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د.ت.
- ١١- الهمداني، رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ت (٧١٨هـ/١٣١٨م)، ترجمة: محمد صادق نشأت، محمد موسى هندراوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، د.ط، دار احياء الكتب العربية، د.ت.
- ١٢- ابن واصل، محمد بن سالم، ت (٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: حسنين محمد ربيع، د.ط، دار الكتب المصرية، جمهورية مصر العربية، د.ت.
- ثانياً. المراجع:
- ١- بهجي، ايناس حسني، دولة المماليك البداية والنهاية، ط ١، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، ٢٠١٥م.
- ٢- تويني، أنولد، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد محمد الشبل، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ٢٠١١م.
- ٣- حمادة، محمد ماهر، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- ٤- حمدي، حافظ أحمد،
- الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، د.ط، دار الفكر العربي للطبع والنشر، مصر، ١٩٥٠م.
- الدولة الخوارزمية والمغول، د.ط، دار الفكر العربي للطبع والنشر، القاهرة، مصر، ١٩٤٩م.
- ٥- الخالدي، إسماعيل عبد العزيز، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ط ١، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٣٠٤هـ-١٩٨٤م.
- ٦- ديورانت، ول وإيريل، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، د.ط، د.ن، بيروت، تونس، د.ت.
- ٧- ريسلر، جاك، الحضارة العربية، ترجمة: خليل أحمد خليل، ط ١، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ١٩٩٣م.
- ٨- الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط ١٥، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ٢٠٠٢م.
- ٩
- ١٢٧٧م، ط ١، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.
- ١٠- شبولر، بارتولد، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد اسعد عيسى، ط ١، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- ١١- صياد، فؤاد عبد المعطي، المغول في التاريخ، د.ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ١٩٨٠م.

فصلية محكمة تُعنى بالبحوث والدراسات العلمية والإنسانية والفكرية

العدد (١٨) السنة الخامسة رمضان ١٤٤٧ هـ آذار ٢٠٢٦ م



فصلية محكمة تُعنى بالبحوث والدراسات العلمية والإنسانية والفكرية

- ١٢- العبادي, أحمد مختار, قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام, د.ط, دار النهضة العربية للطباعة والنشر, بيروت, ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- ١٣- عبد الحليم, رجب محمد, انتشار الإسلام بين المغول, د.ط, دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع, ١٩٨٦م.
- ١٤- عدوان, أحمد محمد, موجز في تاريخ دويلات المشرق الإسلامي, د.ط, دار عالم الكتب للنشر والتوزيع, الرياض, ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- ١٥- العربي, السيد الباز, المغول, د.ط, دار النهضة العربية للطباعة والنشر, بيروت, ١٩٨١م.
- ١٦- عمران, محمود سعيد, المغول وأوروبا, د.ط, دار المعرفة الجامعية, د.ت.
- ١٧- الفقي, عصام الدين عبد الرؤوف, الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي, د.ط, دار الفكر العربي للطباعة والنشر, القاهرة, ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ١٨- فهمي, عبد السلام عبد العزيز, تاريخ الدولة المغولية في إيران, د.ط, دار المعارف, القاهرة, ١٩٨١م.
- ١٩- لوبون, غوستاف, حضارة العرب, ترجمة: عادل زعيتر, مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة, القاهرة- جمهورية مصر العربية, ٢٠١٢م.
- ٢٠- محمد, صبحي عبد المنعم, المغول والمماليك السياسة والصراع, ط١, العربي للنشر والتوزيع, ٢٠٠٠م.
- ٢١- هلال, عادل إسماعيل محمد, العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي, ط١, عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية, الهرم, ١٩٩٧م.
- ثالثًا. الأطاريح والرسائل الجامعية:
- ١- الغامدي, عبد الله سعيد محمد, جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن السابع الهجري, أطروحة دكتوراه, غير منشورة, كلية الشريعة والدراسات العليا التاريخية, جامعة أم القرى, ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ٢- هاني فخري عطية الجزار, النظام العسكري في دولة المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م), رسالة ماجستير (غير منشورة), الجامعة الإسلامية, كلية الآداب, غزة, ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- ٣- ياسين, عبد علي, العراق في عهد المغول الايلخانيين من ٦٥٦هـ-٧٣٦م, أطروحة دكتوراه غير منشورة, كلية اللغة العربية, جامعة الأزهر, ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- رابعًا. المجالات العلمية:
- ١- بحيث, فائز علي, الخلافة العباسية بعد الاحتلال المغولي لبغداد (٦٧٦-٦٥٦هـ/٨٥٧٧-٨٥٥٨م), مجلة كلية العلوم الإسلامية, عدد ٢, ١م, ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- ٢- يعقوبي, نعيمة سعيد, دراسة نقدية في فكر المستشرقين جاك ريسلر وفان فلوتن, كلية التربية, جامعة الجفارة, العدد ٨, ٢م, ٢٠٢٣م.